المقاربة البيولوجيا الاجتماعية للنمو عند هنري فالون

هنري فالون فيلسوفا ومختصا في الأمراض العقلية والعصبية، وبيداغوجي ورجل سياسي، ومختص نفسي وهو من أصل فرنسي.

طور –فالون- نظرية حول النمو حاول ضمنها إبراز مدى تعقيد هذه السيرورة (Le processus du développement) تناول خلالها نمو الفرد من جوانبه العاطفية الإنفعالية والبيولوجيا، الاجتماعية الثقافية، حيث يؤكد ان هذه الجوانب مكملة لبعضها البعض، وينظر إلى هذه النظرية على أنها مقاربة بيولوجيا اجتماعية (Approche Biologique et Social).

لا يتحدث – هنري فالون – في نظريته عن مراحل محددة بعتبات، بل يرى أنها متداخلة بصفة معقدة، تتميز بأزمات وصراعات (crises et conflits) فالانتقال من مرحلة إلى أخرى ينتج عن تغيير مفاجئ يضع الفرد أما خيارين (نشاطات قديمة متعود عليها ونشاطات جديدة) وهو الأمر الذي يخلق شعور بالصراع عند الفرد، ويركز – H. W- على أن نمو الطفل هو مزيج وتداخل لعوامل بيولوجيا وعوامل اجتماعية.

1- مبادئ التقسيم المرحلي عند – هنري فالون -:

نمو الفرد يمر بجملة من المراحل منها ما يغلب عليها النمو العاطفي وأخرى يغلب عليها نمو الذكاء.

تعرف بداية كل مرحلة بوقوع وشعور الفرد بصراع.

لا يسميها مراحل النمو وإنما مخطط النمو وضمن المخطط يتحدث عن المراحل.

المراحل عنده تتميز بالتداخل، ويقصد بالتداخل أنه ليس من الضروري انتهاء مرحلة للبداية في التي تليها، بل يمكن الأولى أن تكتمل في الثانية.

2- أهم مبادئ نظرية هنري فالون:

الآخر (L’autre) يلعب دور مهم في معرفة الذات.

الإنسان كائن اجتماعي بالدرجة الأولى.

الحركة هي تعبير عن علاقة الطفل بمحيطه، وتلعب دور كبير في نمو الفرد.

النشاط الحركي عند الرضيع هو تعبير عن العاطفة.

التقليد نشاط مهم يساعد الفرد في فهم ذاته والتفاعل مع المحيط وهو دليل الذكاء.

2- مخطط نمو الطفل عند –H. W - Le Schéma du Développement de L’enfant Selon Henri Wallon:

يرى أن النمو يمر عبر مخطط متكون من جملة من المراحل المتداخلة ويقترح 6 مراحل وهي:

2-1مرحلة النزعات : Stade Impulsif (من الولادة حتى 3 أو 6 أشهر تقريبا):

تتميز هذه المرحلة بعدم تنظيم الحركات وتعبر هذه الأخيرة عن الجانب الانفعالي لشخصية الطفل حسب – هنري فالون – الحياة النفسية للرضيع تترجم بحركات غير منسقة وبدون هدف معين، ولا تتطور هذه الحركات إلا بنضج الجهاز العصبي والتفاعل مع المحيط العائلي. يقول – H. W- "لم أستطع ان أفضل بين البيولوجي والاجتماعي لأنهما عند الصنف البشري جد متكاملين منذ الولادة، ومن تم من المستحيل تصور الحياة النفسية للفرد دون الإشارة إلى العلاقة الوطيدة بين البيولوجي والعاطفي".

2-2المرحلة الانفعالية: Stade Émotionnel (بين 3 و 9 أشهر تقريبا):

تصبح حركات الرضيع في هذه المرحلة نفعية (utile) حيث يستعملها للتعبير عن حاجاته ويعتبرها مرحلة الإنسجام العاطفي (symbiose affectif) يصبح الطفل خلالها قادرا على التعبير عن مشاعره مثل: الفرح، الحزن وتصبح العاطفة هي المنظمة للسلوك. ويتحدث فيها – H. W- عن مرحلة المرآة، فخلال هذه المرحلة لا يدرك الرضيع أنها صورته (تلك التي يراها في المرآة)، بالنسبة له تلك الصورة عبارة عن جسم خارجي، إذ تتميز هذه المرحلة بعدم التنسيق بين تصور وإدراك الرضيع لجسمه والواقع.

2-3المرحلة الحسية الحركية: Stade Sensorimoteur (بين 9 و 12 شهرا تقريبا):

نلتمس خلال هذه المرحلة أكثر تنسيق بين تصورات الطفل والواقع وكذلك أكثر تنسيق في الحركات التي يقوم بها الطفل كما تتميز هذه المرحلة بوعي أكثر بالأجسام الخارجية، فهي فترة تطوير قدرة الطفل على تصور الاجسام عند غيابها عن حواسه . نضج الجهاز العصبي يبقى بدائي قاعدي.

2-4المرحلة الإسقاطية: Stade Projectif (بين سنة وسنتين تقريبا):

عند – H. W- في هذه المرحلة هناك مرور واضح من الفعل إلى التفكير، حيث الحركات تصبح أكثر تنسيق مع التصورات الذهنية، ويسقط الطفل أفكار للخارج بالحركة كما يعبرعن أفكاره بالإماءات. الطفل يتحرك ويستكشف العالم المحيط به، يلمس ويتعرف على الأشياء بفضل نضج جهازه العصبي من جهة ودعم الاسرة من جهة أخرى لهذا الاستكشاف، يتحدث – H. W- هنا عن ظهور الذكاء العملي.

الطفل في هذه المرحلة أكثر اهتمام بالعالم الخارجي عن اهتمامه بنفسه، وهي المرحلة التي تظهر خلالها عند الطفل استجابة التنقيب Reflexe D’investigation.

2-5مرحلة التشخيص: Stade de Personnalisation (بين سنتين و5 سنوات تقريبا):

يصبح عند الطفل في هذه المرحلة قدرة التعرف على شخصيته، ويصبح أكثر وعي بنفسه خلال السنة الثالثة يظهر لديه التمركز على الذات والتقليد وهي فترة النقض والمواجهة، وابتداء من السنة الرابعة أو الخامسة يبدأ الطفل يندمج فعليا في الأسرة (Intégration).

2-6مرحلة الشخصية متعددة الأقطات: (5 أو 6 سنوات إلى 11 سنة):

هي مرحلة التميز حيث يشارك الطفل في نشاطات عديدة ومختلفة ضمن جماعات مختلفة (أسرة، مدرسة، أصدقاء لعب، فريق رياضي...) اين يؤثر على الجماعات بسلوكات المشاركة والتضامن وبالتالي تصبح لديه قدرة على القيام بأدوار كثيرة ومختلفة، والتي من شأنها أن تعطي طابع تعدد الأقطات لشخصيته.

إضافة إلى هذه المراحل الست لم يتجاهل – H. W- المراهقة ويمكن اعتبارها المرحلة السابعة لنمو الفرد قبل الوصول إلى سن الرشد وهي مرحلة مهمة في بناء شخصية الفرد.

7-المراهقة عند – H. W-: L'adolescence (ابتداء من 12 سنة):

وهي أزمة حادة بفضلها يتعلم الطفل ويكتشف القيم الاجتماعية وثقافة المجتمع التي تصبح قيمه وثقافته ويرى – H. W- أن هذه المرحلة هي مرحلة التنقيب الفكري وتحديد هوية الفرد. أهم ما يميز هذه المرحلة و التي تعتبر مرحلةالبحث عن الذات وإثباتها هو التغيرات الفيزيولوجية و الجسدية العديدة والسريعة والتي لها تأثير كبير على المراهق.

7-1. الأبعاد النفسية للتغيرات الجسدية:

الكثير من علماء النفس ينظرون إلى مرحلة المراهقة على أنها ولادة ثانية، وذلك للتغيرات الشاملة التي تطرأ على جسم الفرد في فترة وجيزة، وكذلك الأبعاد النفسية التي تحدثها هذه التغيرات السريعة على شخصيته:

7-1-1. ضياع التوازن والبحث عن الذات:

يتميز نمو الفرد من الولادة حتى سن 12 سنة بالاعتدال، حيث أنه يتم بصفة تدريجية تجعل الطفل يستبطن توازنه تدريجيا دون عناء كبير لكن مرحلة المراهقة تصحب بتغيرات جسدية كثيرة وسريعة من شأنها أن تفقد الفرد توازنه. إن الفرد يعي جسمه ومكانته في المحيط الذي يعيش فيه اعتمادا على معالم وعلامات جسمية واجتماعية، وهذه التغيرات السريعة تجعل المراهق يفقد التوازن الذي وصل إليه في سن 12 من أجل هذا نرى أن سلوك أغلب المراهقين يتسم بالرعونة.

7-1-2. النرجسية والاهتمامات الذاتية:

التغيرات السريعة وفقدان المراهق المعالم التي كان يعتمد عليها في فهم كيانه ضمن المحيط الخارجي تجعله يحول كل اهتماماته نحو جسمه وذاته فالنرجسية هي أول ظاهرة نفسية تطبع وعي المراهق، فيصبح لديه اهتمام مفرط بجسمه وبشكله الخارجي (تصفيف الشعر، اللباس،...) وهذه سلوكات عادية من شأنها أن تزيد المراهق ثقة بالنفس لكن امتداد التركيز على الذات والاهتمام المفرط بالنفس بعد المراهقة سلوكا غير عاديا انطلاقا من هذا الوعي بالذات، ينتقل المراهق في الاهتمام بالقضايا الشخصية الذاتية مثل: العمل المدرسي والمستقبل المهني...الخ.

7-1-3. الحياء والخجل من القضايا الجنسية:

ظهور أول الأعراض الجنسية عند البالغ يصحب بخجل وحياء كبيرين خصوصا في المجتمعات العربية بسبب ثقافة هذه الاخيرة، فهي تربي الفرد منذ الطفولة على اعتبار الجنس ميدانا منبوذا في مستوى الحديث والممارسة، وتؤثر كل ممارسة جنسية غير شرعية، وهذه الحالة أقوى عند الفتاة منها عند الفتى لارتباطها بقضية البكارة والحمل غير الشرعي..الخ.

7-1-4. الانحرافات المرضية:

إذا كانت فترة المراهقة مع ما يتبعها من تغييرات جسدية، مرحلة طبيعية يمر بها أغلب الأفراد بسلام، فإن أبعادها النفسية قد تأخذ شكل مرضيا، إذا لم يجد المراهق في محيطه التفهم والمساعدة الكافيين. تصحب التغييرات الجسدية والهرمونية بآلام وهي آلام النمو وقد تولد هذه الآلام خوفا عند المراهق من أن تكون هذه الأخيرة لأمراض داخلية خطيرة، وهنا يأتي دور العائلة والإرشاد النفسي والتربية الجنسية للتخفيف من شدة هذا الخوف وإقناع المراهق بأنه يمر بمرحلة طبيعية يمر بها كل الناس.

7-1.2. خصائص التفكير خلال فترة المراهقة:

يدخل الفرد ابتداء من مرحلة المراهقة في مرحلة الذكاء المجرد، وهو نمط من التفكير ينعت بكونه افتراضي، استنتاجيا، وعلائقيا ونسبيا. التفكير الافتراضي الاستنتاجي يمكن المراهق من التجول إلى عالم الممكن وذلك لأن تفكيره في هذه المرحلة لا يصبح مقيدا بالواقع الملموس، كما يمتاز التفكير في هذه المرحلة بقدرة الفرد على التفكير بصورة تتوضح فيها العلاقة بين الأفكار (CAPACITE D'ASSOCIATION D'IDEE) وأخيرا من خصائص التفكير في هذه المرحلة النسبية، أي بعد الطفولة يبدأ الفرد يكتسب القدرة على أن يحكم على نفس القضية أحكاما مختلفة باختلاف الزوايا التي ينظر منها للموضوع. إن الدخول في مرحلة التفكير المجرد من شأنه أن يزيد المراهق شعورا بقوته لذلك نراه يقارن نفسه بالكهل ويعتبر نفسه مماثل له، وهو تصور يجعله يطالب باستقلاليته.

7-2.2. الخصائص الانفعالية للمراهق:

لو قارنا الطفل بالكهل لرأينا أن أول ما يميز الثاني عن الأول هو بالتبعية، فالطفولة هي فترة التبعية التامة أينما تمتاز الكهولة بالاكتفاء الذاتي والقدرة على القيام بممارسات في إطار اختيارات شخصية ومسؤولة حتى أن بعض علماء النفس يعرف النضج على أنه اكتفاء ذاتي للفرد. من الطبيعي أن تكون مرحلة المراهقة مرحلة تأرجح بين التبعية والاكتفاء الذاتي، وهو الامر الذي يخلق التوتر في علاقة المراهق بالكهل. خلال بداية هذه المرحلة نلاحظ أن المراهق يسعى إلى أن يكون لديه عالمه الخاص (خصوصياته) أسراره الخاصة، التي لا يبوح بها أساسا إلى الكهول وخصوصا الأولياء، هذا الأمر يخلق لديه شعور بنوع من الاستقلالية كما نجده يتخذ قراراته الخاصة دون استشارة وهو سلوك لإثبات ذاته عن غيره من أفراد الأسرة والمجتمع.

7-3- العدوانية عند المراهق:

يبدأ المراهق بمعارضة الكهل في أفكاره وقيمه لكن هذه المعارضة قد تنقلب إلى عدوانية نحو الكهل، العدوانية قد تكون الطريقة الوحيدة التي قد يراها المراهق مناسبة ليحمي اكتفاءه الهش، فالمراهق مفتقد لإمكانيات الكهل (فكرية ومادية) ما زال كائنا ضعيفا، فإذا ما تهجم على الكهل فذلك ما هو إلى وسيلة للدفاع عن نفسه، هذا لا يعني أن جميع المراهقين عدوانيين وإنما يلجأ البعض منهم أحيانا لهذا السلوك لإثبات ذاتهم والحفاظ على كيانهم المستقل.

يمكن القول أن المراهقة عامة هي مرحلة مليئة بالتناقضات فالمراهق يسعى من جهة لتحقيق ذاته وإثباتها والتخلص من التبعية ومن جهة أخرى نجده مولع ومتشبه بنجوم الفن والرياضة وبعض الكهول من محيطه، فتقليده المطلق لهم يتبنى نوعا ما مع سعيه للتحرر من قيود الراشدين، لكن هذه التناقضات ثرية تغذي حياة الفرد وتدفع بنموه نحو الأمام.